تأليف جعفر الصادق ، ومن قائل أنها من كلام بعض متكلمي المعتزلة ، ولكن السائد اليوم هو أن كتابات زيد بن رفاعة كانت نواة هذه الرسائل . والأربعة الذين يذكرون معه كانوا يساعدونه في التأليف وانضاج الرأى . وقد كان لتأليف الرسائل على هذا النحو من التعاون أثر كبير في اسلوبها واختلاف قيم اجزائها ، فهي في مواطن قوية الفن غزيرة المادة ، وفي مواطن اخرى مهلهلة الأسلوب سطحية المباحث . وهذا التباين الملحوظ في مراد هذه الرسائل يثبت لنا ان مؤلفيها كانوا على تفاوت في ثقافتهم

على أن من هذه الرسائل ما انفرد بكتابته شخص واحد من هذه الجماعة دون غيره . ومن هذه الرسائل رسالة الحيوان . فاطراد الافكار وتسلسل المعاني ، ووحدة السياق التي تلحظ في هذه الرسالة يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأنها لكاتب فذ منهم . وهذه الرسالة في رأينا — هي أقوى هذه الرسائل واعلاها نفسا وأسدها منطقا ، وقد عرضت هذا الرأى على الأب انسطاس الكرملي منذ سنوات فجاءني منه جوابها مايلي :—

« رسالة الحيوان هي — كما تقول — لكاتب واحد منهم اقواهم عبارة واصفاهم فكرا واحسنهم منطقا . لكن الظاهر ان بعض الأخوان نظروا فيها واحكموا تنسيقها ، واظهروا فيها حذقهم ، وحضرة الأب — على ما أفهمني — يدرس رسائل أخوان الصفا منذ سنة ١٩١٧

ولعل الغرض الخاص الذي ألفت من أجله هذه الرسالة كان انتقاد المجتمع اذ ذاك على لسان الحيوان كما فعل بعض أدباء الغرب في عصور التضييق على الحريات الفكرية . فأخوان الصفا في هذه الرسالة ينطقون الحيوان بما لا يستطيعون الجهر به من عبارات كلها تقريع للحكام ورجال الدين والقضاء في ذلك العصر (انظر ص ١٥٤-٥٥، ٢٣٣ - ٣٤)

أما المصادر التي استقى منها إخوان الصفا فهي عديدة ومتنوعة ، وذلك انه لم يكن يمنعهم عن النقل من أي مذهب أو دين أو فلسفة مانع ، كانوا يرون أن في كل مذهب أو دين أو فلسفة قسطا من الحقيقة ؛ وإذن ليس ثمة مانع من الانتفاع به أقصى ما يمكن الانتفاع . وعلى هذا المبدأ يبني فلسفتهم الانتخابية . ففي هذه الرسائل من الافلاطونية الحديثة ، وفيها من الفيثاغورثية ، وفيها من مذهب وحدة الكون (الباتيزم) وفيها من أفلاطون وأرسطو ، وفيها من الديانات الهندية والزردشتية واليهودية والمسيحية .

شرق الاردن — أديب عباسي

حجاج الخضرى

للاستاذ محمد فريد أبو حديد

قد تكلم المتكلمون في وصف أهل مصر فأكثروا في وصفهم من المبالغات ، وذهبوا في التعميم مذاهب مختلفة . فنهم من أغرق في المدح حتى لم يترك فضيلة الا وصفهم بها ، وهؤلاء قد غاب عنهم من وجه الحق مثل ما غاب عن الفريق الآخر الذي أغرق في الذم والتجريح . وقد تناول أفاضل كتاب الرسالة هذا المعنى فضربوا فيه بسهم

ولعمري أنه لم يخطىء كاتب خطأ كتاب العربية قديما اذا هم تناولوا قوماً بالوصف ، فانهم إذا وقعت أنظارهم على جماعة أو عاشروا فئة من الناس وصفوها وصفا يخيل إلى من يسمعه أو يقرؤه أنه وصف شامل لكل أهل البلد ، أو أنه سمة ثابتة لكل الجنس ، في حين أنهم انما كانوا يصفون من اتفق لهم الامتزاج به أو من ألقتهم الظروف في سبيلهم .

إن العالم الذي يحاول وصف الشعوب إنما يصل إلى حكمه على مميزات الشعب بعد أن يدقق في بحثه ويفحص من أفراد الجنس عدداً يستطيع بعد فحصه أن يقول بحق إنه قد عرف نسبة محترمة من أفراد ذلك الجنس ، فاذا ما قال إنه رأى في ذلك الجنس صفة لازمة يشترك فيها الافراد جميعاً أو أغلبهم كان ذلك الحكم جديراً بالوثوق والتصديق . وشعب مصر إذا ذكره الذاكرون انما يعني به شعب تلك الأرض الممتدة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، وليس من السهل على أحد أن يصف مثل ذلك الشعب بوصف شامل يعم أفراده جميعا ، أو يصدق على أغلبهم . فأمثال ابن خلدون والمقريزي ممن وصفوا أهل مصر إنما يصفون من رأوه من أهل الدولة أو من الأعيان أو من أهل العلم ، وهؤلاء ان صدقت عليهم كلمة أو شملهم وصف لم يصح أن يكون وصفهم وصفا للأمة جميعها . بل إن وصفهم لا يصح أن يكون وصفا لبعض الأمة فضلا عن كلها . وذلك لان أغلب أهل هذه الطبقة في مصر لم يكن في تلك العصور من جرثومة البلاد وأبناء شعبها الصميمين ، بل كانوا أخلاطا من مشرق الارض

وغربها قد اجتمعوا فيها بين مجندين فى جيشها أو غالبين على حكومتها أو مقربين فى بلاط حكامها الاجانب ، أو علماء يجمعهم الاسلام من كل الامصار والأقطار فى صدره الرحب السمح .

ولقد أهمل مؤرخو مصر ذكر ابناء البلاد الصميمين اهمالا يكاد يكون ازدراء لهم واحتقارا لشأنهم ، إذ زعموا أن مهمة المؤرخ محصورة فى حدود رجال الدولة وأهل الحكم ومن يلحق بهم أو يطيف بأبوابهم من رجال الدين والعلم . غير أنا نجد بين حين وحين اسما من اسماء الدهماء والعامة يذكره المؤرخ عفوا ، وهو اذ فى نظرنا على صفة أهل مصر من تلك الأعلام العالية والاسماء الضخمة التى ملأ قدماء المؤرخين كتبهم بوصفها ، وبنوا عليها أحكامهم لان تلك الاسماء المشهورة لم تكن فى أغلب الاحوال من أهل مصر وان كانت من أهل مصر ، فهى غير جديرة بأن تتخذها أساسا للحكم على اهل مصر . وانى ذاكر هنا اسما من هذه الاسماء المتواضعة لعلى أبين من وصفه ان شعب مصر الحقيق كان فيه رجال ، وان البطولة كانت تسرى فى عروق عامته الذين لم يحظوا بتخليد التاريخ .

كان من أهل مصر فى اول القرن التاسع عشر رجلا متواضع الصناعة اسمه حجاج . وقد كانت صناعته بيع الخضر فكان اسمه يذكر دائما مع اسم صناعته ، فكان الجبرتى رحمه الله يذكره اذا ذكره باسم (حجاج الخضرى)

وكان العصر الذى فيه حجاج عصرا فذا فى تاريخ مصر منذ عهد الفتح العربى الاول . فقد اعتاد أهل مصر منذ قرون طويلة ان يتركوا أمر السياسة والحكم والحرب لمن غلب على البلاد من الدول أو من الجماعات وتمادوا فى ذلك الاعتياد حتى صارت عقيدتهم أن الحكم واجب على غيرهم ، وان واجبهم الابتعاد عنه وعما يستلزمه من نضال ومغامرة . غير ان غزوة الفرنسيين هزت البلاد هزة عنيفة تصدعت لها العقائد الثابتة . فاذا بأهل مصر يرون الجنود الاجنبية تطرد جنود السلطان الذين اعتادوا الخضوع لحكمه ، وتشتت شمل المماليك الذين قضوا الاحقاب يتصرفون فى أمور البلاد تصرفا مطلقا ، فأصبحوا وجها لوجه أمام حالة جديدة لا تدعمها عقائدهم الاولى ولا عاداتهم الموروثة .

وبدأت روح أهل مصر تتنفس ، وبدأت حواسهم تتنبه ، فاذا بهم يثورون على الفرنسيين فى شوارع القاهرة وأزقتها مرتين فى مدى سنتين ، واذا هم يلقون اعداءهم المسلحين وهم لا يحملون الا الهراوى والحجارة ، ويحتمون منهم وراء متاريسهم وخنادقهم يقيمونها فى عرض الطرق وعند مداخل الميادين . وكان حجاج الخضرى من زعماء تلك الثورة الشعبية وأبطالها ، فبز نفسه بقوة الجسم ورباطة الجأش وثبات الجنان ، حتى صار أبناء البلد ينظرون اليه نظرهم الى القائد المحبوب الموثوق به ، يهرعون اليه عند الكوارث ويصرخون باسمه عند الفيعات . ثم خرج جيش الفرنسيين وعاد الحكم الى السلطان وولاته ، ولكن مصر شهدت عقب ذلك أشد تطاحن على الحكم والسلطة بين الزعماء والهيئات ، حتى انتهى الامر بتطلع مؤسس الدولة العلوية المجيدة الى الملك .

انتهت فى هذه الاثناء زعامة الشعب المصرى المتنبه الى الزعيم الجليل السيد عمر مكرم ، وهو الصديق الحميم لمحمد على باشا ، وكان حجاج هذا من صفوة أعوانه وأشجع جنوده ، فعندما تخاذلت جنود الاتراك عن نصر محمد على باشا فى نضاله مع منافسيه قام السيد عمر مع أهل مصر الصميمين بحصار القلعة حتى اضطروا القائد المنافس الى التسليم ، وكانوا لا يرجون من جهادهم ذاك مالا ولا عطاء ، بل كانوا يرابطون ويحاصرون ويحاربون من أجل الوطن وحده . وكان حجاج الخضرى أظهر الزعماء الشعبيين فى هذا الموطن . قال الجبرتى فى يومياته :

« فأرسل (أى السيد عمر مكرم) الى من بالنواحى والجهات وأيقظهم وحذرهم فاستعدوا وانتظروا وراقبوا النواحى ، فنظروا الى ناحية القرافة فرأوا الجمال التى تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا الى القلعة ، ومعها أنفار من الخدم والعسكر وعدتهم ستون جملا ، فخرج عليهم حجاج الخضرى ومن معه من أهالى الرميلة فكسروهم وحاربوهم وأخذوا منهم تلك الجمال »

واستمر نضال حجاج على رأس هؤلاء الجنود المصريين المخلص حتى تم الامر بانتصارهم وتولية محمد على باشا على مصر ، وجاء فرمان السلطان مقرا بالأمر الواقع ، وعند ذلك خرج موكب النصر المصرى وعلى رأسه قواده المظفرون : وقال الجبرتى فى وصف ذلك :

« اجتمع الناس ، وطلعوا [illegible] ، وخرجوا من آخر الليل ، وهم بالاسلحة والعدد والطبول الى خارج باب النصر .... وكثير من الفقهاء العاملين رؤوس العصب ، واهالى بولاق ومصر القديمة والنواحى والجهات ... وكبيرهم حجاج الخضرى وبيده سيف مسلول

و كذلك ابن شمعة شيخ الجزارين وخلافه ، ومعهم طبول وزمور والمدافع . . . الى ان وصلوا الى الازبكية فنزلوا بيت محمد على باشا ، وحضر المشايخ والاعيان وقرأوا المرسوم » . وبذلك تم انتصار الشعب ، واخذ يتطلع الى الحكم والسياسة . وما كان ذلك ليرضى الجنود الاتراك الذين تعودوا ان يكونوا سادة غير منازعين . فلما انتهى النضال الكبير بدأ التنافس والتنازع بين أهل مصر وبين الجنود . وكان حجاج ممثل ذلك التنازع والتنافس . قال الجبرتى فى بعض يومياته بعد ذلك « وقع بين حجاج الخضرى والعسكر مقاتلة جهة طيلون وقتل بينهم اشخاص ، فرأى أهل الحكم أن يعودوا بذلك الشعب الى هدوئه الأول ، وسكينته القديمة ، فبدأوا ينزعون منه السلاح بعد أن انقضت الحاجة الى حمله . فغضب الناس لذلك حينا ، غير انهم أرغموا على الاذعان فأذعنوا . ولكن نفس حجاج الخضرى لم تذعن بتلك السهولة بل قاوم وناضل وكابر . قال الجبرتى فى وصف ذلك .

« وفيه بنى حجاج الخضرى حائطا وبوابة على الرميلة عند عرصات الغلة » ولكن ايستطيع فرد أن يقاوم دولة ولو كان من بناتها ؟ لا ، فان حجاجا لم يستطع الا الهروب من القاهرة التى جال فيها تلك الجولات ، ولجأ الى جيش الالفى بك ، وكان عند ذلك مرابطا بجيشه بترقب الغرر ، ويتحين الفرص ، جاثما طورا عند إطفيح بالصعيد ومرة عند دمنهور بالبحيرة .

غير ان المقام لم يطب لذلك البطل المصرى فى جيش الالفى بك وكيف يطيب له المقام : وهو ابن البلد الصميم ، يقيم بين جيش من المماليك يتسخون عليه بأنوفهم ، وهو المعتز بكرامته الذى يرى نفسه مثيلا وكفؤا لهم ؟ قال الجبرتى فى وصف ذلك :

« وفيه أيضا حضر حجاج الخضرى الرميلاتى الى مصر ، وقد كان خرج من مصر بعد حادثة خورشيد باشا خوفا من العسكر وذهب الى بلده بالمنوات . ثم ذهب عند الالفى ، وأقام فى معسكره الى هذا الوقت ، ثم ان الالفى طرده لنكتة حصلت منه ، فرجع الى بلده ، وأرسل الى السيد عمر مكرم فكتب له أمانا من الباشا ، فحضر بذلك الأمان وقابل الباشا وخلع عليه ونادوا له فى خطته بأنه على ماهو عليه فى حرفته وصناعته ووجاهته بين اقرانه . »

غير أن نفسه لم تكن لترضى بعد ذلك بالبقاء فى صفوف العامة الذين قضى عليهم أن يعودوا إلى ازوائهم واكتفائهم بالعيش العادى ، فاختفى مرة أخرى من القاهرة ، ولا ندرى بعد ذلك له مقراً . أقتله الجنود انتقاما من كبريائه ؟ أهرب إلى وطن غير مصر ؟

لسنا ندرى غير ما قاله الجبرتى « وفيه اختفى حجاج الخضرى أيضا بسبب ما داخله من الوهم والخوف من العسكر » . اللهم ان فى صفوف الابطال أفذاذاً لم يسمهم التاريخ ولم تعهم ذاكرة الأحفاد ليؤدوا اليهم ما يستحقون من الاجلال . . . ولئن كان حجاج الخضرى أحد هؤلاء ، فقد حفظ لنا المؤرخ المصرى اسمه فى عرض حديثه ، وهو يمر به مرورا سريعا . غير أنى اتجه الى ذكراه بقلب خاشع تملؤه دعوات التر- ، تتردد فيه أسمى عواطف الاجلال والتبجيل .

ألا يستطيع مصرى أن يقول عند قراءة سيرة حجاج إن فى المصرى أنفة وعزة ؟ وإن له نخوة وسطوة ؟ وإن بين جنبيه همة وقوة . . . ؟

محمد فريد أبو حديد

والبيئـــة أيضا . . .

أما لهذا الليل من آخر . . . ؟

للدكتور محمد عوض محمد

من الموضوعات التى لابد أن تمر بناجيا ـ الموازنة بين الوراثة والبيئة . هذا الموضوع بمثابة المطية الذلول التى لايتحرج أضعف الناس وأصغرهم من أن يمتطيها . ثم يخيل إليه الوهم أنه أضحى فارسا من كبار الفرسان ! ولقد طالما نشاهد صغار الناشئين وقد جلسوا على المنابر - ووقف هذا لينتصر للوراثة ويراها كل شىء . وذاك لينتصر للبيئة ويدعى لها كل شىء ، وقد لايكون للمتكلمين بعد إلمام صحيح بمعنى الوراثة او البيئة .

ولا بأس بهذه الأشياء ، ما دام يراد بها العبث البرىء ، وتمرين الطلاب على الحوار - ولكن كلام الاحداث فيما يجهلونه قد يغدو ويا للاسف ـ عادة تلازمهم مدى الحياة . وقل أن يوجد بين الموضوعات مايتطلب الدقة فى الفهم ، والتأنى فى الحكم كموضوع الوراثة والبيئة .

فأما الوراثة فيراد بها مايرثه الناس عن آبائهم وأجدادهم من الصفات التى اختصت بها سلالتهم التى ينتمون اليها . فتأثير الوراثة هو تأثير الجنس والسلالة . والقائلون بالوراثة يزعمون ان هذا الشعب راق لانه من جنس راق ، والآخر منحط لان جنسه منحط